المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:05، العدد:02 (2021)، ص498-510

القوى المحلية ودورها في الجزائر العثمانية 1518-1830م -المشيخة القبلية أنموذجا-

The local forces and their role in Ottoman Algeria 1518-1830

- The Tribal Sheikhdom as a Model-

رشيدة شدري معمر
جامعة أكلي محند أولحاج- البويرة (الجزائر)
tavsanciksedri@hotmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/06/09
تاريخ القبول:
2021/10/14

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الشيخ
- ✓ المشيخة
- ✓ القبيلة
- ✓ السلطة العثمانية

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على الدور الذي لعبته المشيخة القبلية في الوسط الريفي والصحراوي، سواء في مجالها القبلي أو في علاقاتها مع السلطة العثمانية، حيث ساعدت هذه المشيخات السلطة العثمانية بالجزائر على مد نفوذها بسلاسة في مناطق بعيدة عن مركز السلطة، فكان هذا أحد العوامل التي جعلت من النفوذ العثماني يمتد إلى المجال الريفي و الصحراوي، ولضمان ولاء هذه المشيخات كانت السلطة تتقرب من القائمين عليها من خلال منحهم امتيازات كتوريثهم المشيخة وكذلك منحهم صلاحيات جمع الضرائب ناهيك عن إعفائهم من دفعها وفي كثير من الأحيان كان هذا التقرب يترجم إلى مصاهرة بين الطرفين.

Article info

Received:
09/06/2021
Accepted:
14/10/2021

Key words:
- ✓ Sheikh
- ✓ Sheikhdom
- ✓ Tribe
- ✓ Ottoman authority

Abstract:

This research paper aims to shed light on the role that the tribal sheikhdom played in the rural and desert milieu, whether in its tribal sphere or in its relations with the Ottoman authority. As these sheikhs helped the Ottoman authority in Algeria to extend its influence smoothly in areas far from the center of power, This was one of the factors that made the Ottoman influence extend to the rural and desert sphere, and To ensure the loyalty of these sheikhs, the authority was approaching those in charge of it by granting them privileges, such as in heritng the sheikhly. It also granted them the powers to collect taxes, not to mention exempting them from paying them. And in many cases this approach was translated intermarriage between the two parties.

مقدمة

لقد احتفظت الإدارة العثمانية بالجزائر بالأنظمة والتقاليد الإدارية والاجتماعية التي كان معمولا بها قبل دخولهم للجزائر، ومن هذه التقاليد التي أبقت عليها الإدارة العثمانية نظام المشيخة، الذي كان متواجدا بإيالة الجزائر خاصة بالشرق والجنوب على عكس الجهة الغربية التي سادت فيها الطرق الصوفية. فالمعروف أن العثمانيين ورغم طول فترة حكمهم للجزائر إلاّ أنّ سلطتهم حسب جل المؤرخين لم تتجاوز سدس البلاد، حيث بقيت عدة قبائل مستقلة، استقلالا تاما وأخرى تـربطها بها روابط واهية [1]، فهذه القبـائل التي استعصت على العثمانيين شكلت قـوة مضـادة، مستقلة لها حكامها وأنظمتها السياسية وهيكلتها الاجتماعية والاقتصادية خاصة في المناطق البعيدة عن السلطة والمناطق الجبلية.

ومن هذا المنطلق سعى العثمانيون إلى ربط علاقات مع القوى الفاعلة في المجتمع، خاصة في المجال الريفي والصحراوي الذي لا تصله سلطتهم، عن طريق خلق إطار للتواصل مع الأهالي بالاعتماد على زعماء القبائل والسلطة الروحية، فأوجدوا بهذا أسلوبا إداريا تمثل في حكم "**الجزائريين بواسطة الجزائريين**"، عن طريق وسائط وقوى محلية روحية أو قبلية، والتي ظهرت في الجزائر بعد ضعف الزيانيين غربا والحفصيين شرقا. وهذا من خلال التقرب من شيوخ القبائل والطرق الصوفية والمرابطيين بالهدايا وإسقاط الضرائب عنهم، ومنحهم بعض المناصب كجباية الضرائب ووسطاء أثناء التمردات المحلية، وسفراء ومفاوضين أثناء الحروب مع جيرانهم...الخ، ويرجع لجوء العثمانيين إلى هذا الأسلوب إلى قلة عددهم وقوتهم وأصولهم، التي لم تسمح لهم بحكم البلاد بطريقة مباشرة [2].

وما يهمنا هنا هو المشيخات القبلية التي انتشرت في الجزائر أثناء الحكم العثماني في عدة مناطق، خاصة في المناطق البعيدة عن السلطة المركزية أين كان لها حق جباية الضرائب وفرض أعمال السخرة وجمع الغنائم دون تدخل السلطة المركزية [3].

1. مفهوم المشيخة

1.1.لغة: تعني صار شيخا وجمعها شيوخ وأشياخ و شيخان ومشيخة ومشايخ، وتطلق على من استبان فيه السن وظهر عليه الشيب، وقيل الشيخ هو من الخمسين إلى آخر عمره أو إلى الثمانيين [4] .

ولقد احتلت عبارة "**الشيخ**" في الفكر العربي الإسلامي حيزا مهما ومجالا معتبرا، وقيمًا سامية في قواميس الحضارات الإنسانية السابقة، خاصة الحضارات الشرقية، فقد كان الشيخ يرمز للوقار والورع والطهر، والحكمة، والقدرة على التأثير على الآخرين [5]. كما يعد شخصية محورية في قيادة القبيلة، فإذا كان صاحب شجاعة وعلم وخاصة صاحب عصبية، نال تقدير واحترام وطاعة أفراد قبيلته وحتى قبائل أخرى، وهو ما أقره ابن خلدون حول نيل الرياسة بقوله: "**ذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، وإنما الغلب يكون بالعصبية،... فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بعصبية الرئيس أقروا الإذعان والإتباع...**" [6].

لكن عندما نتفحص تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية نجد أن مصطلح الشيخ اتصل بعدة مناصب دينية وسياسية وإدارية قديمة ومستحدثة، لكن مدلولها يختلف من منصب لآخر، فنجد لفظ الشيخ يطلق على من يرأس الزوايا أو الطريقة الصوفية أو القبيلة التي يتولى رئاستها وإدارة شؤونها، ويكون من ذوي العصبية الكبيرة والوجاهة تشد أزره للاستمرار في منصبه [7].

فكل قبيلة كان لها شيخ يرأسها، لكن لم يكن كل الشيوخ لهم نفس النفوذ، فبعضهم لهم نفوذ في مناطق ضيقة تخص القبيلة، وهي تمثل المشيخات الصغرى، ويعرفون "**بشيوخ الخلعة**"[8] ومنهم من لهم نفوذ على مجموعة من القبائل، وبهذا تكون له سلطة ونفوذ على قبيلته وعلى رؤساء العديد من القبائل الأخرى، وتعرف بالمشيخات الكبرى، ومن يرأسها أطلق عليه لقب "**شيخ العرب**"[9] الذي كان يستمد قوته وسلطته من القبائل الرحل التي يستعملها لإخضاع المناطق المتمردة عن سلطته، أو التي ترفض دفع الضرائب، مثل مشيخة الذواودة التي كانت تتحكم في 11 قبيلة من قبائل الأوراس والقبائل الرحل، أما قبيلة أحرار الحنانشة فتخضع لها 16 قبيلة [10].

2. تعيين شيخ القبيلة

كان شيوخ القبائل يعينون من طرف الأعيان، الذين يرشحون للمنصب من كان يتميز برجاحة العقل وحسن الخلق ورفعة المكانة والانتماء للعائلات ذات النفوذ [11]، وهو ما أشار إليه أحمد باي بقوله: "**فلكي يكون للمرء نفوذ يجب أن يكون له ثروة عظيمة ومواهب كبيرة ويكون عالما وشجاعا ومن أسرة نبيلة وجليلة**" [12]. كما يشترط في الشيخ أن تربطه صلة قرابة بالقبيلة، فالروابط الدموية تلعب دورا أساسيا في حياة أفراد القبيلة وتماسكهم، فهو الذي يحدد هويتها الاجتماعية والسياسية والإدارية [13]، هذه الشروط المتبعة في تعيين شيوخ القبائل نادرا ما يخالفها القياد، بحيث يتجاهلون استشارة أعيان القبيلة وهذا تماشيا مع مصالح البايلك.

ونظرا لطبيعة اختيار الشيوخ فسلطتهم كانت تعتمد على إرضاء أفراد القبيلة وتنفيذ ما اتفق عليه أعيانها، هذا الأمر اكسبهم غالبا سلطة أبوية غير محدودة، وقدرة على تنفيذ أوامر القياد ولو بالاعتماد على أحد فروع القبيلة المنتسبون إليها أو المرتبطة معهم بالولاء والتبعية، التي تشكل ما يسمى "**فرسان المكاحلية**" الداعمين للشيخ [14].

ويتم تنصيب شيوخ القبائل وإقرارهم في مهامهم من طرف القياد بأمر من آغا العرب ونزولا عند رغبة الأهالي [15]، وعلى عكس تعيين شيخ القبيلة، فإن تعيين شيخ العرب، كان من اختصاص باي قسنطينة، الذي كان يقدم له قفطان التولية والسيف وبعض الامتيازات، مثل الأراضي وبعض الحاميات العسكرية لتأديب القبائل المتمردة على السلطة [16]، وهو ما أشار إليه حمدان خوجة بقوله: "...**إن تعيين مشايخ الصحراء من اختصاصات باي قسنطينة، بحيث عندما يوليهم زمام المشيخة يهدي لهم معطفا مدبجا بالخيوط الذهبية، ويضع تحت تصرف الشيخ الواحد عشرين خيمة من الجنود الأتراك وأعلاما وجوقة موسيقى عسكرية، ويكون كالملك بالنسبة لسكان الصحراء**" [17] .

ولا يصبح التعيين ساريا إلا بعد حصول بعض شيوخ المشيخات الكبرى، التي اعتبرت حليفا للبايلك على برنوس مطرز بالذهب مقابل ولائهم [18]، فعند تعيين باي جديد يستدعي شيوخ العرب مثل رؤساء الذواودة (بوعكاز) وأحرار الحنانشة وأولاد مقران للبس القفطان الذي يرسله باشا الجزائر دليل اعتراف بسلطتهم وتجديدا لها [19]. وهو ما أشار إليه "**ابن العطار**" بقوله: "**إن الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر، يلبسها أولا ثم يبعث بها على شيخ العرب (يقصد به بوعكاز الذوادي)، وبعده شيخ الحنانشة، ويعرف... بوظيف القفطان، لأن ولايتها كولاية الباي**" [20].

أما المشيخات الصغرى فيتحصل الشيخ على القندورة أو البرنوس الأبيض [21]، أو الأحمر المطرز بالحرير وليس له الحق في الختم، ويعينه القائد [22]. وفي مقابل هذا عليهم دفع ما يسمى حقوق التولية [23]. التي يدفعها شيوخ القبائل الكبرى للباي، أما شيوخ القبائل الصغرى فيدفعونها للقايد [24].

إن عملية اختيار الشيخ في الوسط الريفي الجزائري، في حال عدم تدخل السلطة المركزية كانت تتم مراعاة لمصالح القبيلة في جميع الجوانب، لكن في حال تدخلت السلطة فإنها غالبا ما تختار الشيوخ من العائلات الموالية لها وذات النفوذ على السكان [25]، بعدما أصبحت المناصب تباع وتشترى علنا وتسلم لمن يدفع أكثر خاصة المناصب المتعلقة بالرسوم والجباية، التي حددت أسعارها يكون الدفع دفعة أو بالتقسيط. وخير دليل على ذلك شيخ بلزمة وشيخ أولاد بوضياف بالأوراس يدفعان ثلاثة آلاف بوجو، وشيخ النمامشة يدفع ألفي ريال مقابل توليهم للمنصب [26]. أما شيخ قشتولة فكان يدفع عند توليه المنصب ما بين 1000 إلى 1500 صايمة للخزينة و2200 صايمة للديوان و630 صايمة للجيش يسمى "**بالبشماق**" [27].

3. واقع المشيخات الوراثية الكبرى في الجزائر خلال العهد العثماني

انتشرت هذه المشيخات خاصة في الشمال القسنطيني وبالجنوب من توقرت حتى وادي سوف وأعالي جبال الأوراس،[28] مثل مشيخة الذواودة، النمامشة، الحنانشة، الحراكتة، قصر الطير جنوب سطيف، وأولاد بوضياف بالأوراس الأوسط والشمالي أولاد بوعزيز ببلزمة، أولاد مقران بمجانة، بني جلاب بتوقرت، بن قانة بالزيبان، أولاد عاشور بفرجيوة، أولاد قاسم جنوب شرق قسنطينة [29]، وأسرة بن عرعار أعالي خليج بجاية، بن فيالا والعابد غرب الميلية بجيجل، وأولاد سيدي الشيخ وشيوخ عمور وأولاد مختار، الذين يدفعون ضريبة (اللزمة) للبايلك مقابل استقلالهم الذاتي، فتارة يتحالفون مع البايلك وتارة يصطدمون معه [30]، وهو حال أغلب المشيخات الكبرى إذا حاول البايلك الحد من نفوذهم والتدخل في شؤونهم الداخلية.

كما وجدت هذه المشيخات بدار السلطان وفي الغرب الجزائري وبايلك التيطري لكن تأثيرها كان أقل مقارنة مع بايلك الشرق، لأن الظروف الجيوسياسية المختلفة التي كانت تعيشها الجزائر في تلك الفترة، جعلت هذه المشيخات تبرز في الشرق الجزائري أكثر من الغرب الذي كان يتواجد به الخطر الاسباني أين نشطت السلطة الروحية أكثر من السلطة القبلية، وتقاربت مع السلطة السياسية لمحاربة الخطر الخارجي وحتى القوى

الداخلية المعادية للبايلك، عكس بايلك الشرق الذي سادت فيه المشيخات القبلية التي اعتمدت في نفوذها السياسي والإداري على المال والقوة، مما اضطر البايلك للتعامل معها كقوة حليفة لا تابعة [31].

والملاحظ أن هذه المشيخات ازداد عددها في القرن 17م مقارنة بالقرن 16م [32]، وكثيرا ما دخلوا في صراع مع السلطة عندما تشعر بازدياد نفوذهم [33]. ورغم شاسعة المناطق الواقعة تحت نفوذهم وكثرتهم، وقوة بعضهم وتمتعهم بنوع من الاستقلال الذاتي، إلاّ أنهم لم يستطيعوا القضاء على الحكم التركي لأنهم كانوا متفرقين، بحيث نجد في دار السلطان 20 قبيلة متعاونة وحليفة و12 قبيلة ببايلك التيطري و25 ببايلك الشرق و29 ببايلك الغرب [34]، وبإمكان شيوخها تجنيد من 03 إلى 04 آلاف فارس [35]، وربما حتى5 آلاف فارس وعدد كبير من المشاة [36].

كما أنها لا تعترف بسلطة البايلك الذي ترك حرية التصرف لشيوخها في مناطق نفوذهم والاقتناع بما يدفعونه له من ضرائب تفاديا للاصطدام معها، فشيخ أولاد مقران كان يتحكم في 12000 خباء (كوخ)، وشيخ الحنانشة 9000 كوخ وشيخ الأوراس 5000 كوخ، وقائد البابور 8000 كوخ، وقائد الحراكتة 6969 كوخ، أي 40969 كوخ غير ملزم بدفع الضريبة للبايلك بل لشيوخه، حتى منهم من كان البايلك يدفع لهم ضريبة اتقاء لشرهم[37] . كما هو الحال بالنسبة لأولاد مقران عهد شيخها عبد العزيز الذي كان يقبض الرسوم على كل تجارة تمر عبر معبر أبواب الحديد في البيبان بما فيه تجارة الأتراك [38]، الذين لا يستطيعون المرور به إلا بعد دفع الضريبة المقدرة بـ 30 ألف أوقجة (150 ألف فرنك) [39].

كانت هذه المشيخات ذات صبغة مرابطية أو عسكرية، فالمرابطية صاحبة النفوذ الديني كانت محل احترام وتبجيل من الأتراك والسكان نظرا لنسبهم الشريف، أما الأجواد [40] أو نبلاء السيف الذين كثر انتشارهم في الشرق الجزائري فقد فرضوا سلطتهم بالقوة ويتصرفون بحرية واستقلالية في إدارة شؤونهم، وقد توارثت امتيازاتها وثرواتها مقابل الإبقاء على علاقتها مع البايلك وجمع الضرائب له وتجنيد الخماسة لخدمة أراضي العزل، ورغم اختلاف نفوذها وسلطتها على أقاليم واسعة أو صغيرة إلا أنها أجبرت البايلك على التعامل معها وفق مصالحها في غالب الأحيان[41] .

وتختلف هذه المشيخات عن قبائل المخزن من حيث السماح لها باختيار شيوخها، كما أن عدم تدخل السلطة في شؤونها الاقتصادية، خاصة بالشرق الجزائري كان سببا في ازدهار اقتصاد البايلك، الذي سيطر عليه إقطاع السيف أو الأجواد، وهو ما جعله أغنى البايالك، فقد كان يقدم أكبر الدنوش من 80 إلى 100 ألف سكة مقابل 40 إلى 50 ألف لبايلك الغرب و12 ألف لباي التيطري [42].

4. مهام الشيخ

لعب شيوخ القبائل دورا هاما في دعم الأتراك لمد نفوذهم داخل الأرياف والمناطق البعيدة وهو ما ساعدهم على إخضاع القبائل الممتنعة والمتمردة على الحكم المركزي لكن هذا الدور جعلهم بين فكي كماشة، فالشيخ من جهة مجبر على تقديم واثبات ولائه للسلطة ومن جهة أخرى هو ملزم بالحفاظ على مصالح قبيلته، لذلك

نجد في المناطق الخاضعة للقياد يعمل على تلبية طلبات القياد ولو على حساب قبيلته في الغالب، أما في المناطق البعيدة فيعمل على التعبير على تحقيق طلبات قبيلته وموقفها الرافض للخضوع المباشر للسلطة [43].

وكان يساعده في أداء الأعمال المنوطة به مجلس الجماعة أو القبيلة، الذي يعين بدوره الشيخ الذي يرأس القبيلة [44] أو رؤساء الدواوير الذين يعتبرون مساعدين له [45]. ففي بعض المناطق كان الشيخ يجتمع مع قادة الخيام كل مساء في شكل دائرة يتوسطهم الشيخ لدراسة أمور القبيلة [46]، أين كانت خيمة الشيخ تتوسط القبيلة وتكون أعلى من باقي الخيام [47]. وقد تعددت مهام شيوخ القبائل بين المهام الخاصة بالقبيلة وبين المهام الموكلة إليهم من طرف السلطة.

1.4. مهام لصالح القبيلة

شيخ قبيلة هو من يشرف على تقسيم الأراضي لزراعتها [48]، ويقرر ما تقوم به كل أسرة من خدمة مساحة الأرض التي تتلاءم مع حاجاتها وإمكانياتها [49]، وكل عائلة تستغل تلك الأراضي لا بصفتها مالكة لها بل كمستفيدة، بحيث لها حق استغلالها والاستفادة منها إلا في حالة تركها أو إعادة توزيع العشيرة لأراضيها [50]، وفي حالة وفاة أحد مستغلي الأرض ولم يترك من يرثه تعود الأرض إلى القبيلة لتقدم لمن هو بحاجة لها أو القادر على استغلالها وهذا تحت أوامر شيخ القبيلة [51].

مراقبة موسم الحرث والحصاد والنظر في قضايا توزيع المياه بالنسبة للقبائل المستقرة أما القبائل الرحل فالشيخ هو من يحدد موعد تنقل القبيلة واختيار مكان استقرارها[52] .

المعروف أن الحد الفاصل بين الملكيات المشاعة الواسعة وغير المسيجة الأثر الذي يتركه المحراث (الجرّة)، حسب الأعراف والتقاليد، وهو ما يدفع ببعض الأسر إلى محاولة توسيع رقعة أرضها على حساب أسرة أخرى، مما يؤدي إلى حدوث الفتن والصراعات التي قد تتحول إلى نزاع قبلي مما يضطر شيوخ القبائل للتدخل بوضع حدود الملكيات اعتمادا على قمم الجبال والأودية أو الطرق خاصة بين الأعراش القوية مثل الحراكتة أولاد عبد النور، النمامشة، عامر الشراقة، عامر الغرابة...[53]. الإشراف على "الذبيحة" أو النفقة وتوزيعها على الأفراد[54] وعلى أعمال التويزة، وحماية الأجانب وضيافتهم بمساعدة مجلس الجماعة أو القبيلة. [55] . اتخاذ موقف موحد إزاء القبائل الأخرى فيما يتعلق بالأحلاف والصفوف والمشاجرات ودفع الدية وحماية الأفراد المنتسبين إليها أو التخلي عنهم [56]، تعيين قضاة القبيلة والدفاع عن القبيلة والنظر في إقرار السلام وقبول الأمان من الحكام[57] .

2.4. مهام لحساب السلطة

كانت هذه المشيخات تتوارث امتيازاتها وثرواتها مقابل الإبقاء على علاقاتهم مع البايلك، وهو ما سمح لها أن تكون همزة وصل بين السلطة وسكان الأرياف خاصة فيما يخص استخلاص الضرائب [58]، فمثلا شيخ بلزمة جنوب بريكة وشيخ الأوراس يوليهما الباي على مناطقهما بعد دفع مبلغ مالي يقدر بـ 3 آلاف بوجو (ريال فضة) ويكلفهما بجمع الضرائب لفائدة البايلك مع الاحتفاظ بجزء منها لهما مقابل خدماتهما [59].

يقوم شيوخ القبائل بتقديم معلومات عن النشاط الزراعي وتربية المواشي في القبيلة من أجل عملية الجباية حيث يتم إحصاء عدد المالكين للمحاريث ثم يسلمه للقابض المكلف بالجباية وعند الدفع يسلم كل فلاح وصل إثبات [60]ويسجل كل هذا في سجل يسمى "الجريدة" توضع نسخة منه لدى شيوخ القبائل ونسخة لدى السلطة المركزية [61].

تجنيد الفلاحين (الخماسين) للخدمة في مزارع البايلك مثل أراضي "**العزل**" [62] [63] أو للخدمة في اقطاعاتها الزراعية الكثيرة التي لا تستغلها لكونها قبائل رعوية [64]، أو تستخير القبائل في عمل التويزة أثناء الحرث والحصاد مقابل حمايتها عند حدوث الكوارث الطبيعية والقحط والحروب وحمايتها من منافسيها مثل قبيلة "**القرفية**" ببايلك الشرق التي لجأت بسبب الصراعات بين قبائل الأوراس إلى الخدمة في عزل البايلك مقابل حمايتها من منافسيها [65].

مراقبة الأسواق الريفية واستخلاص رسومها وحقوق التولية وفرض الغرامات على المخالفين وإلزام السكان بدفع المطالب المخزنية حسب قدرتهم وطاقتهم واستتاب الأمن والحد من تمردات القبائل الخاضعة وشبه المستقلة وإبقائها خاضعة للسلطة[66] . فقد اعتمد العثمانيون على مشيخة الذواودة لجباية الضرائب للسلطة المركزية وحفظ الأمن بمناطق نفوذها وقمع التمردات وشن الحملات على القبائل الممتنعة مع دفع ضريبة سنوية تقدر بـ 20 ألف بوجو [67]، وكانوا يلجؤون إليها كلما اقتضت الضرورة والاستعانة بها ضد قبيلة الحنانشة التي كانت تقطع طريق المؤونة الذي يصل الحامية التركية بأولاد يعقوب [68].

تجنيد الفرسان والمتطوعين لدعم السلطة في حالة الحاجة لهم مثل عائلة بن زعمون بدار السلطان التي كان لها نفوذ على عدة قبائل كفليسة وسيباو، بحيث كان بإمكان شيخها تجنيد 20 ألف متطوع من 19 قبيلة شرق الأطلس المتيجي وغرب بلاد القبائل لصالح البايلك فعند الإنزال الفرنسي سنة 1830 بسيدي فرج نجدها جندت أكثر من 7000 رجل [69].

5. امتيازات المشيخات

مع مرور الزمن اكتسب بعض شيخ القبيلة مكانة لا تقل عن القايد، إذ كان يتمتع تقريبا بنفس امتيازات القايد حيث يأخذ ضريبة البشارة ولا يدفع الضرائب وله حق تجنيد الخماسة [70]، وهذا ما سمح لبعض شيوخ القبائل بالتعامل مباشرة مع آغا العرب بدل القايد ومنهم من أصبح يتعامل مباشرة مع الباي، والذي سمح لهم بهذه المكانة هو مدى بسط نفوذهم على عدد كبير من القبائل وحجم مساهمتهم في الضرائب، حتى أطلق على بعضهم "شيخ الشيوخ" مثل الحاج علي شيخ بوحلوان وشيخ بني صالح علي بن عبد الرحمن وشيخ بني مناد أحمد بن موسى وشيخ شنوة زايد بن علال وإبراهيم بن شاشي [71]، أما شيخ قبيلة زاوية أولاد سيدي أحمد بن يوسف، وأولاد سيدي لخضر بالتيطري وهما من القبائل الحليفة للسلطة كان شيخها يدعى "**بالأمير**" عند الترك [72].

أما قبيلة أولاد سيدي الشيخ، فقد حظي شيوخها باحترام لدى البايات الذين كانوا عند قدوم شيخها إلى وهران يرسل الباي لاستقباله فرسا مسرجا والموسيقيين ويطلق سراح العبيد على شرفه واحتراما له رغم أنها لم تمنح الوجود الفعلي للسلطة على أراضيها، فهي كانت سندا للسلطة المركزية ضد المتمردين عليها ونظرا لمكانتها بين القبائل لم يكن البايات يجلبون معهم لجمع الضرائب إلاّ 100 فارس مخزني، فقد شكلت هذه المشيخة أرستقراطية عسكرية ودينية شبه مستقلة حظيت بنفوذ واسع حتى كان شيوخها يجمعون الضرائب لصالحهم [73].

في حين كان لشيخ الحنانشة الحرية في إدارة قبيلته والقبائل الخاضعة له كما كان معفيا من دفع الضرائب أويتم تخفيضها مقابل حفظ الأمن وجمع الضرائب للسلطة التي يأخذ العشر منها وله فرقة عسكرية تشكل حرسه الخاص تدعى "**المزارقية**" تشبه نوبات البايلك [74]. أما مشيخة بن قانة التي تقلد أفرادها عدة مناصب إدارية وسياسية في العهد العثماني كما منحت لها عدة إقطاعات، الأمر الذي جعل منها أسرة إقطاعية واسعة الثراء خاصة منصب شيخ العرب الذي مكنها من الاستفادة بجزء من الضرائب التي تجمعها [75].

ومن أجل كسب ولاء شيوخ القبائل منحهم صالح باي أراضي تسمى حكور المكافآت والترضيات بهدف الحفاظ على مصالح البايلك المادية والمعنوية وتوطيد نفوذه وسلطته على القبائل [76].

وفي حال كراء أراضي وأحواش البايلك لشيوخ قبائل المخزن والقبائل الحليفة يكون مقابل خدمات عسكرية [77] وأحيانا يخفض مقابل تربية مواشي البايلك ورعاية خيوله وقد يسقط عنهم حق الكراء مقابل الولاء [78] .

كان شيوخ القبائل القائمين على أراضي البايلك يحصلون على ترضيات سنوية عند جني المحصول من الخماسة تتمثل في دجاجة، 10 بيضات، حمولة خشب وخروف إن كانوا يملكون أغناما [79]، وهذا طبعا مقابل تشغيلهم في أراضي البايلك.

كانت لهذه المشيخات امتيازات أخرى إلى جانب استغلالها لأراضي البايلك فقد سمح لها بتصريف إنتاجها وشراء حاجياتها من السوق بكل حرية [80]. لأن البايلك اتخذ الأسواق التي تحت إشرافه وسيلة من أجل إخضاع القبائل وكسب ولائها.

عند استخلاص رسوم الأسواق وحقوق التولية التي عادة ما تكون نقودا أو ملحا أو جلودا أو خشبا وغيرها غالبا ما يحتفظ الشيخ والقايد بجزء منها لأنفسهم [81].

في حال فرض ضريبة الخطية من طرف القياد أو الشيوخ فغالبا ما يحتفظون بها ولا يقدمونها مع الضرائب [82].

6. سياسة السلطة العثمانية مع المشيخات

انتهجت السلطة سياسة التقرب من هذه المشيخات عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين توارثوا الحكم اعتمادا على كفاءتهم الحربية أو أصلهم الشريف من خلال منحهم امتيازات خاصة كما رأينا سابقا إضافة إلى:

التقرب من شيوخها ومرابطيها بإسقاط الضرائب عليهم وإصدار فرمانات التولية مقابل خدمات جمع الضرائب من المناطق الخاضعة لهم وتأمين الطرق [83].

انتهاج سياسة اللين والتقرب من شيوخها حيث كان البايات يتقدمون بعبارات الشكر والاحترام إلى هؤلاء الشيوخ عند مساعدتهم مثلما جاء في وثيقة من صالح باي للشيخ عبد الله بالعباس بدون تاريخ نظير مساعدته لخليفة الباي في جمع مستحقات البايلك على منطقة مرداس من الفرنسيين والتي تقدر بألف ريال جاء فيها: "...**حفظ الله تعالى... ابننا الشيخ عبد الله بالعباس...وما عرفتمونا فيه من أنكم وقفتم مع ابننا المعظم السيد مصطفى الخليفة... ولا انفصلتم عنه إلى أن كمل [كذا] جميع أشغاله وتوجه إلينا في أمان وعافية... تعلم ابننا بارك الله فيكم...**" [84].

عن طريق المصاهرة التي لعبت دورا بارزا في مد نفوذ البايلك، وإحلال الأمن خاصة في المناطق التي تقطنها قبائل شديدة المراس، حيث نجد رجب باي ولكي يضع حدا للخصومة التي بين العثمانيين ومشيخة الذواودة زوج ابنته أم هاني للقيدوم أخ شيخ العرب أحمد بن الصخري [85] وتزوج الباي أحمد القلي من رقية ابنة شيخ العرب سليمان بن قانة التي لم تنجب له أولاد لذلك تزوج بإحدى بنات المقراني حاكم مجانة، كما زوج أخت زوجته مباركة لفرحات بن علي بوعكاز شيخ الذواودة [86]، وزوج ابنه محمد الشريف من رقية بنت الحاج بن قانة، والدة الحاج أحمد باي [87]. إضافة إلى هذا نجد الكثير من البايات صاهروا عائلة بن قانة حتى تكون قوة في وجه عائلة بوعكاز الذواودة. وممن اعتمد على المصاهرة بالجهة الغربية نجد الباي مصطفى بوشلاغم الذي صاهر عدة شيوخ ببايلك الغرب وهو ساعده على البقاء في الحكم 30 سنة [88]. أما الباي محمد المقلش وبعد تأكده من تورط المغرب في حرب درقاوة عمد إلى الدهاء والسياسة حيث تصاهر مع الشيخ قدور بن الصحراوي رئيس قبيلة الحشم وهي من القبائل الموالية للدرقاوي، كما أرسل إلى هذه القبائل الحبوب أثناء المجاعة التي اجتاحت تلمسان [89].

العمل على تفتيت التجمعات القبلية الكبيرة وتنصيب شيوخ موالين لهم وإذا عجزوا عن هذا لجئوا إلى مصادرة أراضيها وترحيل بطون منها إلى جهات أخرى من أجل إضعافها وهو الأمر الذي دفع بالقبائل إلى الثورة على البايلك [90].

إتباع البايلك سياسة التفرقة بين الأحلاف الكبرى؛ فهذه السياسة تعد سلاحا اعتمدت عليه السلطة العثمانية كثيرا في مجتمع تغلب عليه العصبية القبيلة، لذلك عمل البايلك على إذكاء الصراع بين القبائل القائم على مبدأ الصف وروح العصبية خاصة على مناطق الرعي والماء، منها تشجيعه الصدام بين أحلاف الأعشاش وأولاد مختار وأولاد خيار وأولاد زيان بالأوراس وبين أحلاف الشعانبة والمخادمة وبني ثور وسعيد عطية بالصحراء، وبين حلف أولاد عبد النور وحلف الحراكتة حول مناطق الرعي والماء بالهضاب العليا [91]. وهذا بغية التحكم فيها وحتى تبقى كلمة البايلك هي الأولى، وقد أشار أحمد باي في مذكراته إلى ضرورة نشر سياسة الفرقة بين القبائل بقوله: "**إن الحرب هي من عادة الأعراب والذي يريد أن يحكمهم ويسيطر عليهم يتوجب عليه إبقاءها بينهم، وأن يحرص على إثارة المشاحنات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس، لأن حالة السلم تقرب بين العرب، وتقوي الاتحاد بينهم، وتوحدهم حول هدف واحد، وهذه الحالة لا يجب أن يطمئن**

لها من يريد أن يسيطر عليهم قد تأتي ظروف توحدهم، وهو ما يدفعهم للثورة وعلى العكس إن وجدت الحرب والعداوة بينهم فإن من يريد أن يحكمهم يكون متأكدا من إيجاد خلفاء يساندونه" [92] .

شن حملات انتقامية مفاجئة على القبائل الحليفة عند رفضها دفع المطالب المخزنية أو محاولتها التخلص من رقابة البايلك [93]، خاصة أواخر القرن 18م وإلزامها بدفع الإعانات والهدايا عن طريق شيوخها، مثل قبائل الزيبان بالصحراء الشرقية التي كان ينوب عنها شيخ العرب بتقديم معونات مختلفة قدرت سنويا ما يزيد عن 21850 ريال بوجو [94] .

خاتمة

في الأخير يمكن القول أن السلطة العثمانية تعاملت مع المجتمع الريفي بعين واقعية اتسمت بالمرونة نوعا ما وهذا بالاعتماد على القوى المحلية ممثلة في القوى القبلية، وأحيانا في القوى الروحية من مرابطين وشيوخ زوايا وطرق، مما سهل من جباية الضرائب وحفظ الأمن، وتسيير شؤون الدولة، رغم أن هذه المشيخات لم يكن لها نفس النفوذ فبعضها حكم أقاليم واسعة بها عدد كبير من القبائل ومنها من لم تتجاوز سلطته منطقة صغيرة. إلا أن كثرتها وقوتها أجبرت البايلك على التعامل معها وفق مصالحهم خاصة في المناطق البعيدة عن مركز السلطة، لتصبح القبيلة مجالا إداريا والمشيخة ممثلة في الشيخ المسير لهذا المجال ويصبح الشيخ عونا للبايلك وبهذا ضمنت السلطة أمن البلاد بتفويض شيوخ القبائل في تسيير قبائلهم مع الارتباط بالسلطة إداريا.

الهوامش:

(1) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تع. محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص 378.

(2) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008، ج1، ص 210.

(3) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م**، ط3، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 363.

(4) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج03، ص 31.

(5) محمد أوجرتني، **أسرة بن قانة ومكانته السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني**، رسالة ماجستير، قسنطينة، الجزائر، 2005، ص 70.

(6) ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تقديم، صهيب الكرمي، دار الأفكار الدولية، عمان، الأردن، الفصل 12، ص 69.

(7) محمد أوجرتني، المرجع السابق، ص 71.

(8) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، طبعة2، دار البصائر، الجزائر 2009، ص 434.

(9) ظهر هذا اللقب في العهد العثماني نتيجة الاتفاق الذي عقد بين أسرة الذواودة وخير الدين بربروس سنة 1529م، وهذا عندما طلب خير الدين بربروس القبائل بطاعة السلطان العثماني، فلبت أسرة بوعكاز الأمر بشرط عدم المساس بأراضيها وامتيازاتها التي كانت لها منذ العهد الحفصيي، واحترام شيوخها وقوانين القبيلة وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية، ليمنح لقب شيخ العرب لرئيس الأسرة منذ عام 1541م، وبهذا ألغي منصب "**أمير العرب**" الذي كان متداولا في العهد الحفصي، وقد نافستها على اللقب أسرة بن قانة منذ 1773 حتى آل إليها سنة 1826م.

(10) جميلة معاشي، **الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق في القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م**، د.م.ج، الجزائر، 2001م، ص 156- 161.

(11) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 229.

(12) محمد العربي الزبيري، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 45.

(13) مجموعة من الباحثين، **المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص 152.

(14) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 229.

(15) المرجع نفسه، ص 229.

(16) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 157.

(17) حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية لإيالة الجزائر**، تح. وتع. محمد العربي الزبيري، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 76.

(18) Baudicour (L), **la guerre et le gouvernement de L'Algerie, Sagnier et Braylibrairie**, Paris,1853, p277.

(19) Mercier, **Histoire de Constantine**, J. Marle Et F. Biron, Imprimeurs-Editeurs, 1903, pp229, 230.

(20) أحمد بن المبارك بن العطار، **تاريخ بلد قسنطينة 1790-1870م**، تحقيق وتعليق عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر، الجزائر، 2011، ص 124.

(21) Ibid, p273.

(22) Tableau des établissements français dans l'Algérie en 1840, Imp Royale, Paris, 1841, p317.

(23) كان شيخ القبيلة يدفع حق البرنوس عند تولي منصبه، ويجمع هذه الضريبة من أفراد قبيلته تحت ما يسمى "**ضريبة حق الفرح**" وهي ريال بسيطة (1.80 فرنك) عن كل أسرة أو خيمة أو دوار، عند صدور قرار التولية أو التجديد، وفي بعض المناطق كان البرنوس يسمى "المشيخ" ويدفع الشيخ 01 ريال بوجو، إضافة إلى حصان يقدم للباي، كما تخصص مبلغا معينا لحامل خبر التولية، وهو ما يسمى **حق البشارة**. - فلة موساوي القشاعي، **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1830م)**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1982. ص71.

(24) Tableau, op.cit, p317.

(25) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 48.

(26) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 433، 434.

(27) Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, pub par Devoulx, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, p45.

(28)- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 193.

(29) ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، **الجزائر في التاريخ، العهد العثماني**، م.و.ك، 1984، ص108؛ ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 430.

(30) ناصر الدين سعيدوني، **ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس**، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص131.

(31) رشيدة شدري معمر، **السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية 1518-1830م**، أطروحة دكتوراه، تاريخ حديث، جامعة الجزائر02، 2018، ص 170.

(32) ربما يرجع ازدياد عددها إلى سياسة التفرقة والتفكيك للقبائل، التي انتهجتها السلطة من أجل إضعاف القبائل الكبرى، أو نتيجة سياسة خلق أسر وتدعيمها لإنشاء مشيخة قبلية حتى تكون ندا لمشيخة أخرى مثلما هو حال أسرة بن قانة التي دعمها البايلك لتقف في وجه أسرة بوعكاز.

(33) صالح عباد، المرجع السابق، ص 362، 363.

(34) رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص 155.

(35) Laugier (D.T), **Histoire du royaume d'Alger**, H. Du Sauzet Amsterdam, 1725, p130.

(36) Peyssonnel et Desfontaines, **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, Librairie de Gide**, Paris, 1838, T01, p292.

(37) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 193.

(38) صالح عباد، المرجع السابق، ص 75، 76.

(39) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, T03, E.Leroux. Paris, 1868, To3, p167.

(40) الأجواد أو نبلاء السيف، لقب أطلق بالمغرب الإسلامي على كل قبيلة إقطاعية حربية توارثت المشيخة والقوة العسكرية، وفي الغالب ينحدرون من إحدى بطون قريش من عرب الفتح ثم من الأدارسة أو من القبائل الهلالية.

(41) رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص 153-156.

(42) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 176.

(43) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 235.

(44) بلبروات بن عتو، **المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2008، ص 297.

(45) Baudicour(L), op.cit, p272.

(46) Laugier (D.T), **Histoire du royaume d'Alger**, H. Du Sauzet amesterdam, 1725, p62.

(47) Ibid, p54.

(48) Tableau, op.cit, p315.

(49) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 104.

(50) صالح عباد، المرجع السابق، ص 377.

(51) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 173.

(52) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 229

(53) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 105.

(54) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 235.

(55) بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص 297.

(56) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 235.

(57) بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص 297.

(58) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 152.

(59) ناصر الدين سعيدوني، "**ثلاث رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال**" مجلة التاريخ، العدد 07، 1977، الجزائر، ص 51.

(60) حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 114.

(61) سعاد عقاد، **الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية بالجزائر 1519-1830م دار السلطان نموذجا**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2014م، ص 96.

(62) **العزل**: أطلق على أراضي البايلك ببايلك الشرق، حيث كانت أجود أراضيه تمنح لموظفي البايلك أو شيوخ القبائل والأسر المحلية الموالية للسلطة مقابل خدمات عسكرية وإدارية بلغت 114 عزل بقسنطينة وهي 4 أنواع، **عزل جبري** الأراضي المؤجرة مقابل ضريبة تعرف "**بالحكور**" مقدرة بـ 12 صاع من الحبوب على كل جابدة (10 هكتار). **وعزل العزيب** تمنح للقبائل الرحل، المكلفة برعاية مواشي البايلك للرعي مقابل إعفائها من الضرائب أو تخفيفها حيث لا تدفع إلا العشور أو حكور كراء الأرض المقدرة بـ 10 ريالات. **عزل الجبل** تمنح للأسر النافذة سياسيا ودينيا مقابل حفظ الأمن و**عزل السهول** تمنح لقبائل المخزن مقابل جمع الضرائب ومساعدة المحلة. جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 183، 185.

(63) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 152.

(64) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 175.

(65) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 117.

(66) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص229، 230.

(67) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 162.

(68) رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص 160.

(69) Genty de Bussy (P), **De l'établissement des français dans la régence d'Alger, et des moyens d'en assurer la prospérité,** T02, Fisman didot, Paris, 1839, p269.

(70) Tableau, op.cit, p317.

(71) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 230.

(72) بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص 261.

(73) رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص 169.

(74) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 156، 157.

(75) المرجع نفسه، ص 88، 89.

(76) ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي**، المرجع السابق، ص 94. الهامش.

(77) جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 174، 175.

(78) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 233.

(79) فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 113.

(80) ناصر الدين سعيدوني، **ولايات المغرب العثمانية**، المرجع السابق، ص 131.

(81) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السابق، ص 234

(82) سعاد عقاد، المرجع السابق، ص 112.

(83) ناصر الدين سعيدونين، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108، 109.

(84) مجموعة 1641 وثيقة 125. مكتبة الحامة قسم المخطوطات.

(85) Mercier (E), Mercier, histoire de Constantine, p235.

(86) Ibid, p267.

(87) Ibid, p 372.

(88) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 163.

(89) رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص 392.

(90) ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 40.

(91) المرجع نفسه، ص 108، 109.

(92) محمد العربي الزبيري، المصدر السابق، ص 40، 41.

(93) ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108، 109.

(94) المرجع نفسه، ص 53.